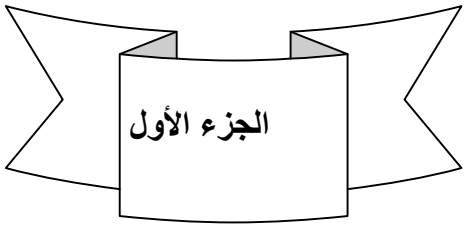

عسكريون فنانون

الجيش والهوية

مدخل أول

يبدو عنوان هذا البحث مثيراً للدهشة منذ اللحظة الأولى وسيظل كذلك حتى اللحظة الأخيرة ، وتنشأ الدهشة في البداية من أن العسكريين ارتبطوا في العالم الثالث عامة وفي السودان خاصة بالانقلابات والسياسة ولاكتهم الألسن وكثرت الكتابات المتعددة من مقالات و كتب برمتها تعالج الأسباب والآثار والنتائج في فترات قديمة بل وفي الزمن الحديث والعصر الراهن لدرجة أن مراكز البحوث والجامعات والمعاهد التي تهتم بهذا الأمر تضع معظم الكتابة عن الجيش تحت محور " الجيش والسياسة"

وكثرة دوران هذا المصطلح عمل على تعمية أبعاد أخرى وعدم كشف حدودها رغم محاولات للبعض عسكريين ومدنيين من السير في الاتجاهات الأخرى ، كما يفعل صديقي الجنرال أحمد طه هذه الأيام وهذه الكتابة تذهب إلى غاية أبعد وهي فتح الطريق وإتاحة الفرصة لآخرين .... ولتستمر الدهشة العامة في المقارنة بين العسكريين والسياسة .. و العسكريين والفن والإبداع.

البحث هذا يبدأ بتقرير حقيقتين : الأولى هي : اشتراك الثنائي العسكري والمدني في تعمية دور العسكر الضخم قصداً مع سبق الإصرار أو سهواً مع حسن النية في الاعتراف المتقدم العملي بالتنوع والتعدد الثقافي في السودان من خلال الفن الإبداعي بل وتطوير محصلة الاعتراف التنوعي هذا إلى إمكانية التعايش السلمي والوحدة عبر التنوع الثقافي.

والفكرة هنا تقوم على أنه من المحال أن تتوازى حياة و ثقافة القبائل والطوائف التي يتكون منها شعب السودان من حيث الكم والنوع لكن بالتأكيد هناك مساحة تختلف مستوياتها ويهمنا هنا إن الثقافة الغنية تصنع إمكانية التعايش السلمي بالتنوع وهي المساحة التي ملأتها وحدات الجيش السوداني بالتنوع الفني داخلها إضافة لتنقلها إلي المناطق المختلفة.

ومن ناحية أخرى يمكن القول أنه يصعب أن تعبّر ثقافة وفنون قبيلة سودانية أو طائفة عن ثقافة وفنون القبائل الأخرى والعكس يبدو واضحاً في ضخامة وسماحة محصلة فنونها جميعها مما يساهم في النهوض وتقدم أبناء الشعب الواجد المتعدد فنياً.

والحقيقة الثانية إن الأزمنة الحاضرة التي نرى فيها دور العسكر السياسي وطغيانه سنرى مستقبلاً وفي يوم قريب قادم دور العسكر الثقافي والفني يتحرك إلى مكان الصدارة لصالح ما كان يبدو من الدرجة الثانية وذلك حين تتغير المقاييس التي يفصلها الصفوة وتتحرك أنوارهم الكاشفة في جميع الاتجاهات بدلاً عن التركيز على دور واحد ملئ بالألغام خالي من الابتسام " والابتسام هنا ليس فردياً بل جماعياً وليس ظاهرياً وإنما عميقاً في الوجدان ينتج وئاما شعبياً يخلق حالة نفسية من الإلفة والمحبة والفرح تتصاعد وتحافظ على تماسكها".ونشير هنا إلى حركة الغابة والصحراء في إطار رؤيتها وهدفها حين إنبرى اربعة شعراء شباب في العام 1963 (النور عثمان ابكر، محمد عبد الحي، يوسف عيدابي، محمد المكي إبراهيم) إلى تأسيس تيار أدبي يعبر عن التنوع السوداني ، ويقول صديقي الشاعر محمد المكي إبراهيم(مضت أربعون عاما على مولد الغابة والصحراء كتيار في الادب السوداني وفي الشعر بالذات .....

وزاد من مظهرية القبول تلك الدعوات التي برزت إلى الوجود منتحلة لباس الغابة والصحراء أو ملتبسة بها دون أن تأتي بجديد أو تقدم إضافة للفرضية الأساسية . وفي هذا الصدد بالذات لم يحفل أحد من مبدعي الحركة بالإحتجاج أو المغالطة بإعتبار أن الغابة والصحراء هي أصلا دعوة فنية لإنتاج أدب وفن يعبران عن حقائق وجماليات سودان يعي ذاته ويحبها....

في تلك الأيام بدأ لنا أن الاعتراف بالهجنة العرقية يتكفل بتحقيق التقارب المطلوب بين مكونات البلاد الاثنية ويلغي الحرب التي كانت تخاض على إعتبار أنها حرب العرب على الافارقة ، ومتى إعترف العرب المزعومين بأنهم أيضا أفارقة سود تجمعهم أواصر القربى بإعدائهم المتوهمين فإن ذلك يفتح الأبوب أمام السلام ويضع نقطة الختام لحرب سخيفة سيئة التسمية.

وكانت الحركة في مجموعها حركة أدباء شباب وقد نأت عن الحراك السياسي وإستهدفت وجدان الجمهور القارئء لتوحي إليه من خلال الأشكال الادبية أن يجد الشجاعة الكافية ليعترف بذاته الحقيقية ويحبها ويحب شركاءه في الدم والوطن.)

(في ذكرى الغابة والصحراء 2007 مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي)

مدخل ثانـي:

يبرز سؤال مبدئي يطرح نفسه عن مدى تناقض أو تطابق أخلاقيات مهنة العسكر ومهامهم القتالية مع دورهم الإبداعي والفني وبالتالي تأثيرهم على مجمل الهوية الثقافية السودانية والتي يرى الكثيرون أنها خلاصة مزج للثقافات المتنوعة ومن أهم عناصرها الفنون والآداب ونضيف أن الهوية الثقافية هي المكون الأساسي للهوية السودانية ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بتحديد أخلاقيات المهنة أولاً: وتتبع التزام العسكر بها وخروجهم عنها ثانياً خلال فترة زمنية محددة (1958-2008).
وحين نفعل ذلك يجوز الافتراض أن كل ما هو خاص بفئة/قطاع/مؤسسة معينة -وإن كانت نظامية – ربما يكون متشابكاً في جدلية مع القضايا العامة والسياسية ولذلك سنستصحبه معنا.

ونبدأ الإجابة في شقها الأول فأخلاقيات مهنة العسكر في جزئيتها الأولى أن تمنح جهدك الفكري والجسماني للمهنة وفي جزئيتها الثانية أن تكون مبدعاً وخلاقاً ومبتكراً وفي جزئيتها الثالثة أن تكون وطنياً لا ترفع بندقيتك ضد شعبك ويمكن الجزم بأن أخلاقيات مهنة العسكر تنطبق تماماً مع الدور الإبداعي (الفني والأدبي) لاحظ الجهد الفكري – الإبداع- الإبتكار الوطنية وارتباطها بثقافة البلد وشعبه واحترامه وعدم رفع البندقية في وجهه ولذلك ليس من الغريب أن يثير دور الجيش الإبداعي وأثره على الهوية الثقافية بشكل عام والعسكريين الفنانين بشكل خاص فضول الباحثين أصحاب الباع في هذه المجالات كما أنه ليس من اليسير بل هو من العسير تتبع مدى تأثير العسكريين الفنانين على مجمل حركة الفن وتطوره في الوجدان الشعبي.

قبل تأثيرهم هذا نعود إلى البدايات ونطرح أثر المهنة فنياً و أدبياً على العسكريين أم أن الأمر برمته عنصره الأول والأخير الموهبة سواء بالهواية أو الاحتراف قبل التحاق الفرد بالعسكرية وفي هذه الحالة يتطلب تغيير عنوان هذا المقال من"عسكريون فنانون"إلى" فنانون عسكريون" كما حدث في فترة نظام الجنرال جعفر نميري (1969-1985) حيث تم استيعاب وتجنيد فنانين في وحدات الجيش المختلفة وهي تجربة جديرة بالدراسة ولكنا في هذه المرحلة من البحث نتحدث عن تأثير المهنة العسكرية على إبداع الفرد الذي يتم تجنيده ضابطاً أو جندياً حتى وإن تم استيعابه كفنان.
وإذا توصلنا إلى درجة تأثير المهنة العسكرية على إبداع الفرد نجزم بأن تأثير الجيش بعدده الكبير على مجمل الهوية الثقافية سيكون بالضرورة ضخماً موازياً لحجمه

تـنَ تـنَ تـنَ
تـنْ تـنْ تـنْ
تـنـنـنْ تـنـنـنْ تـنـنـنْ

هذه تذكرنا بالإيقاع عند مشية العسكر ويطرب لها من يستمع إليها وتصيبنا الحماسة سواء المشية السريعة أو البطيئة في مناسبات قرقولات الشرف أو الأفراح أو طابور الجنازة عند وفاة أحد القادة والإيقاع الجميل هذا يرجع إلى الوزن بمعنى محافظة الأرجل غلى الزمن بين خطوة وخطوة " وهذه الخطوات الإيقاعية الزمنية الموزونة يتم التدريب عليها منذ أول بدء التدريب إلى أن يذهب الفرد إلى التقاعد" وخلال التدريب تتعود الآذان على صيحات المعلمين (يا طالب أظبط مشيتك ---قلل سرعتك---غيّر خطوتك) وكل أوجه التدريب من بيادة , أسلحة , تربية رياضية , تكتيك وفي مستويات التدريب المختلفة يدرسون فن القيادة، فن التكتيك ، فن القتال الخ وكل ذلك مربوط بالخطوات الموزونة والزمن كذلك يرتبط ما أقوله على الشعر والغناء بمعنى أن بين الشعر والغناء شبهاً عظيماً يرتبط بالإيقاع لذا يمكن القول باطمئنان أن الإيقاعات مشتركة بين الشعر والغناء ومشية العسكر.

والعسكر بعد نهاية التدريب وتخرجهم وتجويدهم مهارة الحفاظ على الزمن الإيقاعي يطربون وينتشون ويبتهجون أثناء الحركة والطوابير بل ويشاركهم الابتهاج والطرب الانتشائي المدنيون الذين يسمعون تلك الخطوات أي يمثلون المتلقي لأي عمل إبداعي قصة قصيرة- شعر- لحن – صورة

صديقي المبدع الأستاذ السر قدور يتغنى بالشعر ويقول عن نفسه أنه "غناي" ومعظم شعره الغنائي يردده بدءً لحناً غنائياً ولذلك فأن الشعر والغناء عنده ليس بينهما تكامل وإنما تطابق لأنه بذلك يشبع الألحان (ويقول الأقدمون إذا شرعت في تأليف الشعر تغنى به فإن ألغناء مضماره الذي يجري فيه)*(الحموي – مقالات علم الأدب 217 – 218).

وفي ذات السياق الشعر والغناء ومشية العسكر أذكر أن كنا بمحطة سكة حديد الخرطوم مودعين لصديقي الملازم وقتها أحمد وداعة الله أن سمعت أحدى الحسان تقول لصديقاتها الحسان(سمحة الدبورة في كتفه) والتعبير هنا ابتهاجا بالمشية الموزونة وإيقاع الخطوات فالحسناء (المتلقية) تصرخ انفعالا وطرباً كما تفعل

حين تسمع الغناء ولنا أن نتصور عمق الطرب وأثره على خلجات كل جزئية من جسم هذه الحسناء إذا تزامنت هذه الخطوات الإيقاعية مع موسيقى نحاسية أو قِرب أو الآلات الحديثة التي تستخدمها موسيقي الجيش والخلاف بين مشية العسكر التي تطربك والتي يتم التدريب عليها كجزء من متطلبات المهنة ومشية الإنسان العادي (الملكي –المدني) أن الأولى موزونة ذات إيقاع متساوية الفواصل الزمنية خلاف المشية العادية " كذا الرقص فهو يتّميّز بنظام الخطوات على اختلافها وثبات مقادير أزمنتها فالشاب أو الشابة الذي لا يحفظ الخطوات عند الرقص نسميه أشتر –شتراء) وأيضاً نلاحظ الطرب الذي يحدثه الذكر عند الصوفية سواء إنشاداً أو الخطوات المنتظمة والإيقاع.

أخلاق مهنة العسكر الاحترافية تتطابق والدور الإبداعي الفني كجزء من الهوية الثقافية والتدريب الذي يستمر للعسكريين منذ دخولهم المهنة إلى خروجهم جزء أساسي منها الإيقاع الموزون والزمن وارتباطه بموسيقي الجيش بآلاتها المختلفة وارتباط ذلك بإيقاع الشعر والغناء , وإذا أضفنا إلى ذلك تنوع الثقافات الإيقاعية والغناء بين القبائل والطوائف التي يتكون منها جيش السودان وعاداتها وتقاليدها نجد أمامنا حصيلة ثقافية وفنية ضخمة لابد أن يوازي تأثيرها على الهوية الثقافية السودانية ضخامة هذا التنوع المدهش.

فمساحة مثل التي نتحدث عنها توفر حالة نفسية منتجة متصالحة مع نفسها وطبيعتها والطبيعة الإنسانية بمعنى أن الحالة الطبيعية أن تصنع المهنة العسكرية تأثيراً إيجابياً على إبداع الفرد ونضيف أكثر أن العلاقة الرفاقية القوية عند العسكريين تشكل عنصراً مهماً في حجم تأثير العسكر على الهوية الثقافية التي هي كما ذكرنا المكون الجوهري للهوية السودانية.

وسنلاحظ حين تتبع التزام العسكر بأخلاقيات المهنة أن ضعف العلاقة الرفاقية يعود إلى التخلي عن الالتزام بها وبالتالي ينتج تدهوراً في قدرة التأثير على الهوية الثقافية بل وانعدامها أحياناً بمعنى التأثير السلبي الذي يقود إلى تفتيت الهوية فتتفتت البلاد.

يرى البعض أن مهنة العسكر تؤثر على السلوكيات وليس الموهبة وفي ذلك جزء من الصِحة ولكن تظل الحقيقة أن احتراف مهنة العسكر كما أوضحنا تصنع الإبداع وتضيف إلى الموهبة وهذا ما تؤكده تجربة الأفراد الذين تم استيعابهم كفنانين عسكريين—نموذجاً بشير عباس- أسماء حمزة – عبد اللطيف ود الحاوي- سمية حسن- عمر الشاعر – الصافي محمد أحمد- الأمين عبد الغفار- الطيب التقلاوي---الخ

و نحن هنا لا نحصر موضوعنا على الموهبة ودرجاتها بل على دور الجيش في حالة السلم وتأثيره على الهوية الثقافية ولكنا مع ذلك سنتبع هذا البحث بنماذج من العسكريين الفنانين الصاغ محمود أبوبكر – الفريق

جعفر فضل المولى – العقيد سيد أحمد العمدة – العميد جلال حمدون – الخ وبذا نفتح الطريق لتناول الموضوع من آخرين سواء علاقة العسكر بالهوية الثقافية أو تأثيرهم فيها.
البشر جميعاً يمتلكون درجات متفاوتة من إمكانية الإبداع وتذوقه لكن الأفراد العسكريين حين يحترفون المهنة فإنها تضيف إليهم وتغرس فيهم فناً راقياً وتضع عليهم دوراً مهماً في تكوين الهوية الثقافية ونقول أن الموسيقى هي ضلع ثالث عند العسكر بعد التدريب والأسلحة.

مدخل ثالث:

في محاولة للإجابة عن السؤال المبدئي الذي طرحناه في المدخل الثاني عن مدى تطابق أو تناقض أخلاقيات مهنة العسكر الاحترافية ومهامهم القتالية مع دورهم الفني –الأدبي على مجمل الهوية الثقافية تحدثنا عن الجزئية الأولى أخلاقيات مهنة العسكر وعلاقتها وارتباطها بالفنون والآداب
في هذا المدخل نحاول رسم صورة عن مدى التزام العسكر السوداني بها وخروجهم عنها خلال الفترة (1958-2008) ونشير بصورة أساسية إلى الانقلابات الثلاث التي استمرت في الحكم انقلاب الجنرال عبود (1958-1964) - انقلاب الجنرال جعفر نميري (1969-1985)- انقلاب الجنرال عمر البشير (1989- الآن).

الجيش السوداني قبل وبعد الاستقلال تحركت وحداته كثيراً وتنقلت في مناطقه المختلفة وبعضها كان نائياً مقفولاً على سكانه محصوراً في ثقافته وبوصول الوحدات العسكرية دخلت ثقافات جديدة تزاوجت مع الثقافات المحلية والجدير بالإشارة إليه أن الوحدات العسكرية نفسها لم تأتي بثقافة واحدة بل متنوعة وكان الأثر الثقافي متبادلاً " ولكن الأثر الأقوى كان للقادم الجديد لأنه كان غنياً بتعدده وأنه لم يأتي بعقلية العنف وتدمير الثقافات المحلية وعلى أنقاضها يشيد ثقافة جديدة ولكن العامل السحري كان التفاعل السلمي – تفاعل الأفكار والثقافات " فأتوا بآلاتهم الموسيقية الشعبية بطنبورهم ودلوكتهم ومزمارهم وطبلهم وتطور التلاقح إلي اللبس و الأكل واللغة – عربي جوبا نموذجاً-

من ضمن مكونات التشكيل العسكري فرقة الموسيقى وهو كما ذكرنا الضلع الثالث للجندية الأول التدريب والثاني التسليح والثالث الموسيقى ومنذ تكوين قوة دفاع السودان كان يتم اختيار قادة الفرقة الموسيقية من الضباط المبدعين المميزين ففي بداية خمسينيات القرن الماضي كان يقودها النقيب وقتها عبد الحميد

خيرالسيد . ونلاحظ أن أغلب أفراد الفرقة الموسيقية ترجع أصولهم إلى قبائل الفونج- النوبة وجنوب السودان وقلة من أبناء الشمال والغرب.*(تاريخ الموسيقى العسكرية في السودان –الرائد خلف الله أحمد غندور 2007).

والضلع الثالث يجسد روح الزمالة وتسود الروح الجماعية حتى في العمليات حيث تصدح في الخطوط الأمامية وتجربة العسكريين الفنية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية كانت شديدة الأثر على الهوية الثقافية والأجيال التالية.

وهذه التجربة أثارت قضية في غاية الأهمية وهي تلقائية الحشد واختلاط الفن الشعبي بالفن العسكري عند مواجهة عدو خارجي أو عند الثورات ضد الطغاة وترتفع عالياً قيمة الأعمال الفنية وخلودها وأثرها والعكس يبدو عند الصراعات الداخلية فينفصل الفن الشعبي عن العسكري ويدخلا في مواجهة فنية ومعركة معلنة بدلاً عن التلاقح وتنحط القيمة الفنية وتؤثر سلباً على الهوية الثقافية فتتحول إلى عدة ثقافات متخاصمة منغلقة على نفسها.

التجنيد للجيش كان يتم عن طريق الموسيقى تجذب الشباب للانخراط وتربط الموسيقى الوحدات العسكرية بالسكان المدنيين حولها وانتصار التلاقح الثقافي عادة ينتج تزاوجاٍ بشرياٍ تتولد منه أجيال متشبعة بالتنوع ونضيف أن انتقال الوحدات العسكرية غالباً يتم من المدينة المستنيرة إلى الريف المتخلف فتنتعش المنطقة الريفية اقتصاديا وقبل ذلك ثقافياً وحتى الانتصارات العسكرية لا تتحقق دون الفن و تجربة حركات التحرر الأفريقية اعتمدت على غذاء فن المقاومة وانتفاضات شعب السودان 1964 و 1985 تزامن فيها فن المقاومة الشعبية مع التحضير لها ونجاحها واستمرارها.

وفي الفترة الأخيرة (1995 – 2003) كانت تجربة الحركة الشعبية لتحرير السودان /التحالف الوطني وقوات التحالف السودانية غنية بفن المقاومة وآمل أن أكتب مستقبلاً عن ملامح هذه التجربة .

الانقلابات تخالف الاحتراف المهني العسكري وتتناقض معه بغض النظر عن المشاريع التي تعلنها والسياسات التي تطبقها وتضعف وربما تلغي دور العسكر الثقافي/والفني لأن الانقلاب يأتي عن طريق العنف و التلاقح يتم سلماً لكن التجربة السودانية في انقلاب الجنرال عبود (1958-1964) و الجنرال نميري (1969-1985) – قبل تطبيق قوانين سبتمبر الإسلامية- تشير إلى أن النظامين اهتما بدرجات متفاوتة بدور الجيش في الهوية الثقافية وتطوير الموسيقى العسكرية والفنون الشعبية.

فقد شيد نظام عبود المسرح القومي وادخل الإرسال التلفزيوني وأقام أول مهرجان قومي للفنون الشعبية وكانت هذه محطة مهمة لدور الجيش فيها ونال إقليم أعالي النيل الجائزة الأولى واشرف على إعداد فرقته

الرائد وقتها جعفر فضل المولى. كما شجعا الإبداع داخل الوحدات بشكل عام (الشعر- الموسيقى – الفنون). وكانت الثلاثة عشرة سنة الأولي من حكم الجنرال نميري هي قمة أثر الجيش في الهوية الثقافية السودانية فتم تطوير سلاح الموسيقى والفنون الشعبية وتكوين الأكروبات وتشجيع إنشاء الفرق الموسيقية داخل الوحدات بعد أن كانت مركزية وغدت لكل سلاح فرقته الفنية ودخل الجميع في تنافس مثير وتلاحظ التنوع داخل هذه الفرق وكثرت نشاطاتها وزادت مساحات زياراتها لبقاع السودان المختلفة والمشاركة في إقامة الحفلات والمناسبات المدنية والعسكرية الرسمية والخاصة.

وربما يعود الحفاظ على هذا الدور في الفترة المذكورة لأسباب كثيرة أهمها تتمثل في: اعتماد النظامين على الجيش في تثبيت حكمهما – خاصة الجنرال عبود – ولم تسيطر عليهما ايدولوجيا مرسومة إلا فترة نميري الأخيرة (1983-1985).

كما أن تبادل الأجيال وتوارث الخبرات كان عاملاً محورياً حيث أن قادة نظام الجنرال عبود جلهم كان مشاركاً في الحرب العالمية الثانية (1944) وعايشوا دور الفن والموسيقى في المقاومة والانتصار ومن هذه الأجيال استمر توارث أهمية الدور الإبداعي إلى العام (1989) ونلاحظ أن فترة جنرال عبود حاولت المزاوجة بين دور الجيش القتالي ودوره الثقافي وبقدر نجاحها شمالاً إلا إنها فشلت جنوباً حيث كانت الحرب الأهلية في ذروتها. خلاف فترة جنرال نميري حتى عام 83 م حيث ساد السلام جنوب السودان وتهيأت فرصة ربما يصعب أن تتكرر في تاريخ السودان ولازدياد التلاقح الثقافي وأثر الجيش فيه.

في يونيو 1989 قفزت الجبهة الإسلامية القومية (الحركة الإسلامية حالياً) بجناحيها العسكري والمدني متبنين للمشروع الحضاري وهو مشروع ايدولجي يسعى لتغيير أهم خصائص شعب السودان –التنوع الثقافي- إلى مشروع ثقافي أحادي يناقض مشروع الهوية الثقافية التي تحمل جينات التنوع الإبداعي داخلها.

خلال العشرين سنة الأخيرة تقريباً (يونيو 1989- ديسمبر 2008) أثبت المشروع الحضاري أنه بطبعه معادي للآداب والفنون. ومن هنا كانت محنة الجيش وأثره السلبي على الهوية الثقافية لأن تخلي الفرد العسكري عن أخلاقيات المهنة الاحترافية يؤثر سلباً على الإبداع – كما أن المشروع الحضاري حصر مهمة العسكر في العنف ضد شعبه (الحرب الأهلية) وعزله عنه ووتر العلاقة الرفاقية بين أفراده وتحولت إلى الشكوك والتوجس والخوف من بعضهم البعض وغدا التمييز بينهم يعود إلى أسباب الولاء والأدهى القبيلة والعرق وأضحت مصدراً سالباً على الهوية بل عاملاً للتفتيت ويمكن ملاحظة ذلك جنوباً وغرباً. *المشهد السياسي السوداني(الهوية السودانية الكاتب: سبتمبر 2004 *.

وبالضرورة تحول التوتر من جانب آخر بين الجيش ومجتمعه الذي يعيش فيه وتزايدت محنته بعمق تناقض عاداته وتقاليده العسكرية و دوره ومنهجه عن منهاج المشروع الحضاري المضلل الذي يوالي النظام السائد ويدعمه ويعكس حالة التخدير والتغييب الثقافي بل حتى محاولة طمس البصمات العميقة التي تركتها تجربة العسكر خلال فترات السلم على مجمل الهوية الثقافية المكون الأساسي للهوية السودانية لذلك نلحظ التفتيت الذي ضرب وحدة السودان. وذلك لتجميد وغياب دورهم في عملية التلاقح الثقافي بين مكونات شعبهم ونسف كثير من القيم الإيجابية وتراجع الحوار حول هوية سودانية متميزة " فالهوية ليس كائناً جامداً بل هي على الدوام في حالة تطور وتحول"* ومجموعات السودان البشرية بهوياتها المتنوعة ليس فقط شعارات" نأكل مما نزرع" وأغاني وأناشيد " فلتسل كل الدماء" كما حاول المشروع الحضاري أن يغرسها بل تبادل مصالح ومنافع ووعي بالآخر وضرورته والثقة به واحترامه كما هو وليس كما تريده الجماعة الحاكمة.

أعلن المشروع الحضاري الحرب الفنية داخل الجيش وأوقف تطور سلاح الموسيقى والفرق الفنية الخاصة بالوحدات وألغى الكثير من التقاليد الفنية العسكرية كطابور الجنازة عند وفاة أحد القادة واستبدل تلك الموسيقى الراقية الحزينية المعبرة بعرس الشهيد ليرقص الرفاق طرباً لموت الرفاق وبدلاً لأن تبكى أم الشهيد تزغرد لموت ابنها الوحيد. ولكن الهزة الكبرى كانت إدخال الدين في علاقة معادية للهوية الثقافية. أذكر في مدينة واو ببحر الغزال في النصف الثاني من ثمانيات القرن الماضي 1987-1987 كان العسكر يذهبون إلى الجامع يوم الجمعة ، وإلى الكنيسة يوم الأحد " ويوم السبت (الترم ترم) وهي حفلات عطلة الأسبوع" لم يكن عنصر الدين عاملاً مفرقاً ولكنه في المشروع الحضاري غدا عامل تفرقة ليس بين المسلمين والمسيحيين بل بين المسلمين العسكريين أنفسهم و إن كان عدم الاستقرار الدائر منذ الاستقلال بين القوى المختلفة يبرز صراع السلطة والثروة إلا أن السبب الأقوى الغير معلن يعود إلى الهوية الثقافية والسودانية.

نحتاج إلى عودة العسكر إلى امتلاك دورهم في الحوار والتلاقح الثقافي عبر إبداعهم الفني /الأدبي للوصول إلي هوية سودانية عبر هوية ثقافية.

خلال(52) سنة أثنين وخمسين سنة حكم العسكر السوداني فترة (42) سنة أثنين وأربعين سنة لكنها ياللهول انقلابات قادتها الأحزاب السياسية هكذا تحدثنا التجربة السودانية زرعت في وحداتها كوادرها وخططت لها ونفذتها ثم بعد الوصول إلى السلطة أبعدت العسكر وحطمت الجيش وحكمت باسمه كما حدث في انقلاب الجنرال البشير يونيو 1989 - 2008 ولنا أن نتصور افتراضاً كيف كان سيكون حال شعب السودان لو لم يتدخل السياسيون في الجيش ولم ينفذ العسكريون انقلاباً ولم يحدث عنف وانحصر طيلة الاثنين وخمسين

عاماً دور الجيش ومهامه سلماً في البنية التحتية ورفاهية الشعب وقبل ذلك في تلاقح الهوية الثقافية والهوية السودانية.

ألم أقل لكم أن الدهشة ستستمر من البداية إلى النهاية.

المراجع:

تاريخ الموسيقى العسكرية في السودان – خلف الله أحمد غندور 2007

مجلة فصول، المجلد (5) 1985

مجلة فصول ، المجلد (6) 1986

في ذكرى الغابة والصحراء (محمد المكي إبراهيم 2007)

الجيش السوداني خمسون عاما من السياسة (الكاتب: مركز محمد عمر بشير 2007)

ديسمبر 01 - 2008

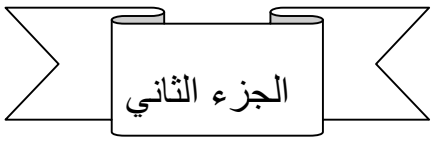

عسكريون فنانون
الثائر المغرد
الصاغ محمود أبوبكر

صرخة حميدة التعايشية:

في صباح يوم من العام 1918م وفي مدينة بور شمال مدينة جوبا صرخت حميدة مبارك التعايشية صرخة الإبداع ولم تدرك أنها تضع طفلها (محمود) الذي سيصبح أحد اهم مروق الإبداع في السودان وأنها تهدي لشعبها ثائراً مغرداً من طراز جديد وفريد . والظروف وحدها هي التى ساقت حميدة إلى مدينة بور ، فقد توفى والدها الذي كان ضمن قادة المهدية في موقعة كرري ، فأخذها أحد زعماء الدينكا القادم مع جيش كتشنر ،(والد عبدالرحمن دوكة)مع والدتها فتربت فى كنف الدينكا (وهناك تزوجها الضابط (الحلنقي) أبوبكر حسن أحمد الذي نقل للعمل في الجنوب ،إذا فوالد محمود كان ضابطا عمل لفترة عمل لفترة طويلة في الخدمة العسكرية حتى وصل إلى رتبة (البكباشي) وهي رتبة أعلى من صاغ التي إنتهت فيها خدمة (محمود) الإبن العسكرية

إستمر ابوبكر حسن في العمل بعد تقاعده حيث تقلّد منصب مأمور مدينة(أمدرمان) ، والثورة المهدية لعبت دوراً كبيراً في تنقلات هذه الأسرة ، فبقدر ما كانت سبباً بعد هزيمة كرري لإنتقال حميدة والدةا محمود إلى بور فقد دفعت جده حسن أحمد إلى الهجرة لأمدرمان إطاعة لأمر الخليفة عبد الله التعايشي، والجد كان أحد زعماء(الحلنقة) ، وأشتهر كفارس تراثي تعرفه القبيلة بل والبجا عموماً وكان صديقاً لزعيم الشرق (عثمان دقنة) .

ويتميز أفراد قبيلة الحلنقة بالفروسية وإقتناء الإبل والخيل ولهم ملاحم شهيرة تتردد في أغانيهم.

إخوته / إخواته:

تزوج البكباشي أبوبكر حسن أحمد ثلاث نساء من مناطق مختلفة (التعايشة – الحلنقة – العقيلاب) فأنتج أولادا وبناتا يحملون في دواخلهم جينات التنوع وهي إحدى الخصائص التي أثرت لاحقا في إبنه محمود ، فقد ضمت الأسرة تسعة أبناء وبنات (خمسة بنات وأربعة أولاد)

حميدة مبارك التعايشي : محمود وزينب

نفيسة نور محمد نور (الحلنقية) : حسن ، عدلان ،آسيا وعاتقة

آمنة بنت وهب عقيل(العقيلاب): أحمد ،فاطمة وخديجة

وإن إستقرت الاسرة بمدينة أمدرمان منذ وصول الجد حسن أحمد (زعيم الحلنقة)إلا أنها حافظت على صلتها بإصولها في الباديةالشرقية وتقاليدها ، وإختلطت بالثقافة الأمدرمانية (أي البادية بالمدينة)، ورغم أن الزعيم حسن أحمد كان صديقا لعثمان دقنة وحارب ضد الطليان في جبال التاكا إلا أن بعض الروايات تشير إلى أن سبب إستدعاء الخليفة عبد الله لجد الشاعر ، أن الخليفة كان يتجنب وجود عثمان دقنة وحسن أحمد معاً.

نشأة الشاعر المغرد:

تنّقل الشاعر المغرد مع والده البكباشي أبوبكر حسن في مدن السودان المختلفة وكانت المحطة التالية بعد (بور) مدينة عطبرة في الشمال حيث بدأ الدراسة في مدرسة (الأمريكان) ثم إلى وسط السودان مدينة الأبّيض حيث إلتحق بالمدرسة الأميرية الوسطى ولكنه أكملها في مدينة حلفا، وفي العام 1932 إستقرت الأسرة بمدينة أمدرمان وإلتحق الصبي محمود بكلية غردون وعمره أربعة عشر عاماً(14 سنة).تخرج بعد عامين من قسم الإدارة المكتبية وعمل بمصلحة السكة حديد لمدة ثلاثة أعوام.

- إلتحق الثائر المغرد بالمدرسة الحربية (براءة الحاكم العام) نهاية العام 1937، ونرقى ملازما ثانيا في العام 1940 وكان الأول على دفعته.

- تزوج من فاطمة محمد مدني، ولم يذهب بعيداً من أسرته فوالدة زوجته آمنه محمد حسن أحمد وأنجب منها خمسة بنات وولدين (آمال،رجاء،كوثر،إلهام ،وجدان، أبوبكر ،حسن).

- تزوج للمرة الثانية في العام 1964 م من رقية المرضي وأنجب منها (هويدا ومنى) ويلاحظ في إختيار الأسماء لولديه إرتباطه بجذوره بوالده وجده وتيمناً بهما اسمى ولديه أبوبكر وحسن، أما اسماء البنات فتتحدث عن الأمل ، الرجاء ، المنى ، الإلهام ، الوجدان ، الكوثر وكأنهاا تعّبر هي أيضا عن الثورة والتغريد.
- من أجمل قصائده المغردة التي كتبها وهو بليبيا أثناء الخرب العالمية الثانية (هلال العامرية)ونظمها لإبنته آمال وكان عمرها سنتين،

يا هلالاً بالعامرية هلا تعب القلب من عسى ولعلا

والعامري من الأسماء التي اشتهر بها الصاغ محمود وتشير إلى بعض قصائده الغزلية والكناية بالاسم تعود إلى (قيس العامري) الذي هام بمحبوبته (ليلى)، ولكننا نلاحظ أن تعدد الأسماء التى كان يوّقع بها قصائده وأشتهر بها هي ايضا كأسما بناته تعبر عن الثورة والتغريد وحملت عناوبين لبعض قصائده هي: العامري – ساري الليل – الكنار – النسر.

أنظر إلى هذه الأبيات من قصيدة أرسلها له صديقه المهندس إبراهيم عمر الأمين :

(يا نسر) هل كل في سكوتك مأرب * أم بت تفصح بالسكوت فتعرب؟
أنا يا (كنار) فدتك نفسي لم أكن * أنسى الوداد فما أنا المتقلب
(محمود) هذا الكون أضحى منصتاً * فأنشده ما قلنا وقالت زينب
فيم السكوت؟ وأنت أفصح من له * فكر عجيب للحقائق منجب
يا شاعراً ملأ النفوس هـدايـة * في رقة تبدو وعود يصلب

إستخدم الصاغ محمود إسم الكنار دلالة على المناضلين ومن ثم تبعه بقية الشعراء ولكن يظل اسم النسر غالب على معظم أشعاره ، ونتوقف أمام إختياره هذا ، ففي ثقافة الصور الشعرية والرموز عند شعراء ذاك الزمان ، فإن النسر يرمز إلى المستعمر الظالم ، في حين أن الطيور والحمل يرمزان إلى الشعب المظلوم ، إلا أننا نجد الصاغ محمود يجعل من النسر رمزاً للمقاومة الشعبية لأن الشعب هو صاحب الحق وليس المستعمر الظالم، إنها صورة رمزية جديدة.يبتدرها الصاغ في سنوات اربعينات القرن الماضي وفي هذا السياق يقول صديقي ألاستاذ فيصل محمد صالح عن الشعر وشعراء الستينات في عموده أفق بعيد قي صحيفة الاخبار الاحد 9 نوفمبر 2008 (وحين كان التقليد المتبع في الشعر العاطفي الإنكسار والتذلل خط محمد المكي إبراهيم الدستور العاطفي لجيله وجيلنا بقصيدته اللاهية إهانات شخصية لقيس بن الملوح والتي

هجاه فيها هجاء مراً.هجا فيها الضعف والإنكسار والتذلل ونعى العشاق الفرسان الذين ما كانوا ليستسلموا للزمن ، أنظر إليه يقول :

لماذا والخيول تصاهلت شوقا إلى التسواح * وسيف شبابك الضاري سنين الحد
والق مثابة الهاربين على معاقل نجد * لماذا لم تعشعش (كالنسور) مع هواك

- أحيل للتقاعد في أوائل الخمسينات برتبة صغيرة (صاغ) تعادل رتبة (الرائد) حاليا ويظل سبب الإحالة في هذه الرتبة يحتاج لمزيد من البحث، ولكن أذهب مع الرأى الذى يقول أنه تقدم بإستقالته دون الجزم بمعرفة الدوافع وراء الإستقالة خاصة وأنه أول دفعته، ويرى البعض أن ميوله للشعر وحبه للحياة المدنية تغلبت على ميوله العسكرية، وآخرون يرون أنها كانت مؤشراً لبداية مرحلة نفسية سيمر بها الصاغ محمود(سنتعرض لها لاحقاً).

المهم أن معظم أصدقائه العسكريين وأبناء دفعته تقدموا في الرتب منهم اللواء محمد احمد عروة الذي وصل إلى رتبة اللواء وعضوا بالمجلس العسكري الحاكم (1958 م – 1964م).

وقد حافظ الثائر المغرد على صداقته لرفاقه من دفعته، منهم عبد الله أحمد المصطفى ، احمد البشير طمل، هاشم الكمالي، إضافة إلى احمد حسن سالم والأخوين عثمان نصر ومحمد نصر.

- يلاحظ أن أحمد أبوبكر الأخ الأكبر لشاعرنا استمر في الخدمة حتى رتبة اللواء ، وهو الآخر كان فناناً تشكيلياً مبدعا وبارعاً في العزف على آلة العود وهاويا لفن البستنة والزراعة ، وأحيل للتقاعد بعد إنقلاب الجنرال إبراهيم عبود(1958) وتم تعيينه مديراً لمصلحة السياحة.
- ولكن شاعرنا الصاغ محمود مّر بفترة عصيبة عندما أصيب بمرض الذهول الذي يجتاح بعض المبدعين أمثال معاوية محمد نور وإدريس جماع لدرجة ظن البعض أنه الجنون الذي لا شفاء منه ، فإنطوى شاعرنا وخلى بنفسه وإبتعد عن الناس وحّلق بعيداً وأطلق خياله للتأمل وإستمر على هذه الحالة الذهولية فترة أربعة سنوات (1958 – 1962)، كتب في هذه الفترة الجزء الثاني من (أكواب بابل في ألسنة البلابل)، وتحدثت القصائد عن فترات وحقب قديمة عن الشرق عموما ومدينة بورتسودان خصوصا وقصائد لفترات لاحقة .

هذا الديوان غير موجود بيد الأسرة ، وتقول الروايات أنه ، توجد نسختين بيد ضابطين من أصدقائه يحتفظان بهما كذكرى قيمة ، ولكننا ندعو إلى نشر الديوان ، فقد أصبح ملكاً للجميع ، إضافة إلى أن دفعه للنور فيه وفاء من الأصدقاء.

- لما رأه أهله وخاصة والده في هذه الحالة الذهولية عطفوا عليه وتحدثوا إليه ، فأنشد شعراً يضاهي الثنائيات عند العرب {جميل بثينة ،كثير عزة،قيس ليلى،(ابن الملوح)،قيس لبنى،(ابن دريح)،عروة بن مزاحم وعفراء،ذي الرمة ومي،مزاحم العقيلي وليلى بنت المهدي، عبد الله بن عجلان وهند، توبة بن حمير وليلى الاصيلية العامرية}

أبصرني أهلي فقالوا به ضنى * ينوء به كتماً فيزوي ويشجب
ولما رأوني ساهياً قيل شاعر * يرى الحسن في خلق الإله فيعجب
يقولون خل الشعر والشعر راحتي * ويا ليت لو يدري به الأهل والأب
ولي وطن أهوى الحياة لأجله * ولي أمة من أجلها أتعذب
وللبحر أمواج والدهر مثلها * ولكن موج البحر أقسى وأصعب

وكتب في الفترة نفسها:

وإني لمجنون وإني لعاقل * وما بي سوى عقلي جنون فأرشدا
جننت فما خلفت للجن عبقراً * وثبت فلم أترك للقمان مرصدا
وحمت فما أسكنت للوحش مكمنأ * وهمت فما امنت للجن موردا
وقلت فلم اترك لشاد صبابة * يغني بها إن فاح أو صاح منشدا

هل كل هذا الذهول الذي إجتاح الثائر المغرد هو ذهول الإبداع الذي يجتاح بعض المبدعين؟أم حبه للسواكنية زوجته (فاطمة) التي نّظم فيها القصائد اللؤلؤئيةوالذى كان يناديها (بهند) فكانت محنة طلاقه منها لذهوله وجنونه إذ رأى إخوته أبوبكر وآسيا وعاتكة ضرورة طلاقه .... أم يعود السبب إلى الصدمة الإنقلابية ودخول الجيش في السياسة وإستقالته من مهنة آبائه وأجداده التي أحبها وإحترفها ثائرا مغردا؟ ففي إحدى تعليقاته لإبنه حسن (الغرض من الجيش هو حماية الوطن ، فقد خرج المستعمر واصبح أبناء البلديقاتلون بعضهم).

وحين بدأ التماثل في الشفاء اتصل به اللواء محمد طلعت فريد الذي كان في وقتها وزيرا للإعلام ويعرف قدره ،جمعه مع مجموعة مختارة من أساتذة مبدعين :عبد الله عشري الصديق (دابي الليل)وأخيه محمد عشري ومحجوب باشري ، وإفتتح بهم مكتبا للترجمة بالوزارة ، فترجموا عددا كبيرا من كتب الأدب الإنجليزي

،ونشير إلى أن الصاغ محمود عرف عنه إجادته وفصاحته في اللغة الإنجليزية بنفس درجة إجادته للغته العربية الموغلة في الفصاحة، واثناء عمله بالجيش ترجم بعض من كتب العلوم العسكرية في القيادة وعبور الموانع المائية .
وكما دفع العسكريون الصاغ محمود إلى الإستقالة أحالته ثورة اكتوبر إلى التقاعد من وزارة الثقافة ، ويبدو أن الثائر المغرد بكل إبداعه الضخم ودوره في إستقلال البلاد من خلال تشكيل النفس والذهن والوعي والأفكار، وإرادة الفرد والجماعة والوجدان الشعبي ، كل ذلك لم يكن مانعا أمام إنهاء خدمته وهو في سن مبكرة ،سواء من العسكريين أو الثوار الاكتوبريين<
عاش الثائر المغرد حياة طبيعية منذ العام 1962 ، تزوج زوجته الثانية (رقية المرضي) ولم يكن ممكنا العودة إلى زوجته الأولى لأن ذلك كان يستحيل شرعا.
وفي الساعة الثامنة وأربعين دقيقة من يوم السبت 26/يونيو 1971 توقف قلب الصاغ محمود أبوبكر بمستشفى السلاح الطبي بأمدرمان وترك الجثمان حتى صباح الأحد ليتمكن الاهل من الحضور، ودفن في الساعة الثامنة صباحا بمقابر حمد النيل وعمره ثلاثة وخمسون عاما.حضر لحظة وفاته أبناؤه آمال ، أبوبكر وحسن،وحضر تشييعه أهله وعشيرته وأصدقاؤه وكان الغياب الرسمي فاجعة أخرى رغم أن النظام العسكري وقتها كان عمره عامين(مايو 69 م – يونيو 71 م)ويتخدث عن الثورة والثوار، ولكن العاصفة الإبداعية الثورية والعاطفية التي أطلقها الثائر المغرد لاتزال متدفقة وجيل بعد جيل نعود إليه كما نفعل اليوم في ذكرى رحيله السابع والثلاثين.

الوراثة عند الصبي محمود:

تأثر الصاغ محمود باسرته فنيا وعسكريا ، فكما ذكرنا فإن جده ووالده كانا مقاتلين من الطراز الأول وفيما يبدو أن الإرتباط بالقتال له جذور موغلة في الأسرة ،والأثر الفني نجده بشكل واضح في أخيه اللواء أحمد أبوبكر الذي يفرض نفسه كأحد أعمدة العسكريين الفنانين فقد كان عازفا بارعا للعود وفنانا تشكيليا اشترك في العديد من المعارض داخل وخارج السودان.والصاغ محمود أجاد العزف على العود والكمان وإمتلك حسا فنيا وتشكيليا والروايات تشير إلى تعلمه العزف على أيدي أخيه أحمد وصديقه العبقري اسماعيل عبد المعين الذي شّكل معه ثنائيا في ملحمة (صه يا كنار)،فالصاغ العبقري يأبى الوقوف على نوعية فنية واحدة وإنما يختار كما يشاء من مواهب متعددة ولا تختاره المواهب.

توجد عوامل لابد أنها أثرت على نشأة وتكوين الثائر المغرد قبل إلتحاقه بقوة دفاع السودان ونشير إلى أهمها:

. بيئة مولده وتلقي تعليمه وإكماله في مدارس مختلفة
. تنقله مع والده البكباشي أبوبكر حسن في مدن السودان المختلفة
. التأثير الأمدرماني الذي غرسته مدينة أمدرمان
. فترة عمله بالسكة حديد(فقد تميزت هذه المؤسسة بانضباط صارم أقرب إلى العسكرية إضافة إلى نضوج حركة المقاومة فيها ضد الإستعمار
. جينات الوراثة المتعددة ، وبعد المدرسة الحربية جينات العسكرية المكتسبة

<u>الدخول إلى قوة دفاع السودان:</u>

- ترك شاعرنا عمله بالسكة حديد في العام 1937 م والتحق طالبا بالمدرسة الحربية وترقى ملازما في العام 1940 م وكان الأول على دفعته التي تعتبر أحد مكونات قوة دفاع السودان التي بدأ التفكير في تكوينها بعد طرد القوات المصرية بسبب دورها التعاطفي مع حركة اللواء الأبيض وثورة 1924 م
- معظم الكتابات تشير إلى أن أسباب تركه وظيفته بالسكة الحديد والتحاقه بالمدرسة الحربية تعود إلى وعد الحكومة البريطانية أنها ستمنح السودان حق تقرير المصير إذا حارب بجانبها في الحرب العالمية الثانية (1940 م – 1944م) وقد رأى الشاب محمود أن الحصول على هذا الحق يستحق الذهاب إلى الحرب ولكنا لا نكتفي بهذا الراى رغم عدم استبعادنا له ونذهب أبعد فالمدرسة الحربية تم إغلاقها عام 1924 م ولمدة تسعة سنوات واعيد فتحها في العام 1933م ، وشاعرنا التحق بالعام 1937 م وكان العدد الذي تستوعبه المدرسة عددا قليلاً
- صحيح أن الفرص كانت متاحة له للالتحاق بالمدرسة الحربية بعد تخرجه من كلية غردون (1934م) ولكنه اختار العمل بالسكة حديد، فوالده كان يتقلد رتبة البكباشي وهي رتبة كبيرة في ذلك الوقت والمستعمر الإنجليزي كان يفضل الضباط الذين ينتمون إلى الهامش ، وقد لاحظنا أن القادة قبل وعند الإستقلال كانوا جميعا من القبائل

لطرفية ومن بينها قبائل شرق السودان (راجع للكاتب :الجيش السوداني خمسون عاما من السياسة)

- يبدو لنا أن شاعرنا استبعد في البداية الالتحاق بالمدرسة الحربية لأنه كان يرى أن المنابر المتاحة وقتها للمقاومة محصورة وسط المثقفين المدنيين وهي تجربته أثناء دراسته بكلية غردون وهي أيضا نفس السنة التي نشأ فيها مؤتمر الخريجين (1934م)
- عدم الرغبة في الإنتماء إلى جيش الملك المصري خاصة وأن والده كان من أحد منسوبيه
- تجربة الثلاث سنوات التي عمل فيها بالسكة حديد ساهمت في وعيه ودفعته إلى التفكير في الالتحاق بالمدرسة الحربية ليلعب دورا أكبر تأثيرا في المقاومة ضد المستعمر
- منحته تجربة العمل بالسكة حديد فرصة المقارنة إجتماعيا بوظيفة السكة حديد وضابط الجيش ومستقبلها وقد عايشها وهو طفل وصبي وطالب أثناء التنقل مع والده بين أقاليم السودان المختلفة ،ولكن أهم

الأسباب نرجعه إلى كمون الثورة المغروسة في دمه منذ مولده وأثر ثورة اللواء الأبيض 1924م التي عايشها وهو طفل عمره ستة سنوات (1918 – 1924) وتخرج من كلية غردون وعمره ستة عشر عاما(1918 م – 1934م) وهو عام نضوج مشروع مؤتمر الخريجيين ،ودخل المدرسة الحربية وعمره تسعة عشر عاما (عاما19) وهو في نضوج شبابه ومقارنة العمر بالنضوج في حالة شاعرنا لا تخضع إلى النسب العامة فشاعرنا العبقري بدأ الشعر مبكرا ونشير إلى قصيدته التي ألقاها مرحبا بالشاعرين محمود العقاد وعلي الجارم وغيرهما من الأدباء الذين كانوا ضمن وفد مصري زائر.

- قناعته باسلوب (الإنتفاضة الشعبية المسلحة)التي إبتدعها ثوار (1924) كوسيلة للمقاومة ، وإنحيازه واضح في معظم أشعاره السياسية بل كان يدعو الشباب إلى الثورة .

وسليبة ضن الجهاد بمثلها
والسالبون أضن من الأيام
وتضيع في الريح المظالم كلها
حتى يعود بها الجهاد الدامي

فإذا غنمتم سالمين فحقكم
أو عز ذلك فأعطبوا بسلام

أثر المهنة على الصاغ محمود

بغض النظر عن أسباب دخوله المدرسة الحربية والاثر الوراثي عنده وعمق الثورة الكامنة فيه إلا أن المهنة أضافت اليه وجعلت منه عسكريا فنانا يتغرد بنوعية جديدة يمكن أن نشير إليها بماركة الصاغ محمود أبوبكر فتميز شعره بخلطة ثلاثية سحرية : الثورة السياسية ، الثورة الإجتماعية ، الثورة العاطفية ،ففي القصيدة الواحدة تلحظ الإتجاهات الثلاثة المتباينة ولكنه بسحره الفني يخلطها فينتج شعرا يخاطب العقل والقلب ويثير الحماسة والعاطفة والوعي والقدرة على إيجاد بعد ثالث للإلتهاب العاطفي وإلتهاب المعارك تنصبه ملكا متوجا على الثورة والتغريد في زمانه .
أنظر إليه يكتب باللغة الدارجة من مدينة الكفرة الليبية ومعارك الحرب العالمية الثانية في ذروتها:

باهي كل ما قالوا كلمة * خت كلمة (كالنبال)
كنت تعلم كيف (جهنم) * تحرق الجنب الشمال
قالوا ليهو القطر تقدم كفرة(نيرانها) زي جهنم
حن قلبه ودمعه سال * هّف بالشوق قال وقال

وإتجاهاته الشعرية في مجملها تصب في المنحى السياسي والاجتماعي فقد تبدا القصيدة بمدح المصطفى (صلعم) ثم يدلف إلى قضايا سياسية مستفزة أو قضايا إجتماعية معقدة.
رغم الثورية المغردة التي أتصف بها الصاغ محمود إلا أننا نلحظ عدم إرتباطه بايدلوجية أو حزب سياسي أو إنتماء للطريقة الختمية التي تتبع إليها الأسرة ، فإنطلق عسكريا محترفا لمهنته ملتزما بأخلاقياتها(الكاتب:عسكريون فنانون الجزء الأول) حيث قاتل في إرتريا ضمن قوة دفاع السودان التي أعادت الامبراطور هيلا سلاسي إلى عرشه وهو برتبة صغيرة . ورغم أن قوة دفاع السودان كانت تعمل ضمن الجيش البريطاني فإن الصاغ محمود لم يحصر نفسه في هذه الجزئية أو القصد الذي يرمي إليه الإنجليز بل تعداها إلى رؤية عسكرية إستراتيجية هامة للقرن الأفريقي ،مشروع

يربط الشعبين السوداني والإثيوبي وهي رؤيا إكتسبها من مهنته وما زلنا نبحث عنها ونحن في نهايات عام 2008.

بإلله أنظر ماذا قال الثائر المغرد والعسكري الفنان :

فدتك يا شعب النجاشي أمة رجالاتها في الروع لم تتفرق
بني وطني هل بينكم من مهند على درج الأشلاء والموت يرتقي
فكيف نرى يا ويح قومي رواية ومأساتها في الشرق لم تتحقق
ونكتف أيدينا ونلقي سلاحنا وجارتنا تحت الدم المتدفق

وعمق الأثر الاستراتيجي العسكري يزداد إذا لاحظنا أن الفترة التي تغنى بها بهذه القصيدة كانت في بدايات حياته العسكرية ورتبته الصغيرة.

بعد تخرجه من المدرسة الحربية ضابطا بقوة دفاع السودان أنشد (صه يا كنار) وهي ملحمة تحولت إلى أغنية مقاومة شعبية ضد المستعمر وشعارا لمؤتمر الخريجين.
ويمكن القول أن تجربة صه يا كنار تشير إلى أن العسكري الفنان لا ينعزل عن الناس ولكنه يعيش معهم وأن المهنة ليست حاجزا أو عامل تباعد بل تدفع إلى قلب الملحمة أو إن شئت إلى قلب المعركة. وكانت القصيدة تتداول سراً حتى أن الاستاذ حسن نجيلة في العام 1945 كان يحفظها لتلاميذه ويتدربوا على أدائها بنفس اللحن الذي وضعه الفنان اسماعيل عبد المعين.
صحيح أن وجود المستعمر أو أنظمة الطغيان والظلم تجعل الإقبال كبيرا على شعر المقاومة ، لكن الصحيح أيضا أن صه ياكنار كانت تعّبر عن الآمال ومطلوبات المقاومة . الصاغ محمود تحدث بلسان شعبه المدني وجيشه العسكري والتحريض إلى وسيلة الإنتفاضة الشعبية المسلحة مخالفا لفكرة النضال السلمي الذي كان يتبناه الإتحاد السوداني في ذلك الوقت.

فإذا صغرت فكن وضيئا نيراً مثل اليراعة في الظلام الأسود
وإذا وجدت من الفكاك بوادرا فأبذل حياتك غير مغلول اليد
فإذا إدخرت إلى الصباح بسالة فأعلم بأن اليوم أنسب من غد
وأسبق رفاقك إلى القيود فإنني آمنت أن لا حر غير مقيد
وأملأ فؤادك بالرجاء فإنها بلقيس جاء بها ذهاب الهدهد

فإذا تبدل شمل قومك فاجمعا وإذا ابو فأضرب بعزمة مفرد
فالبندقية في براد بيوتها طلعت بمجد ليس بالمتبدد
صه يا كنار وضع يمينك في يدي

كان يرى في حوارات المثقفين إضاعة جهد وكثيرا ما هجا المقلدين للثقافة الغربية وكتب عن علاقة المستعمر بشيوخ القبائل وإعتماده عليهم ومجاراة أبنائهم لهم وكان يرى في ذلك مؤشرا مستقبليا سالبا .

وفي ذلك يقول في قصيدته (وراء الأثير):

هرع اللسان إلى الكلام فرده صوت الضمير
وإذا فضحت بني أبيك أصابك العار النكير
والقدر يثبت للهيب ومن توفره يفوز
والعزم يعمل للجهاد فتستجيب له الدهور
نرد المذلة جهرة والذل يوشك يستجير

تميزت معظم أشعار الثائر المغرد بالإيقاع الوراثي والمكتسب العسكري ،وكأنك ترى وتسمع إيقاع الشعر والغناء ومشية العسكر ، وقد استخدم اللغة العربية الفصحى والإيغال في الرصانة لدرجة صعوبة معرفة معنى المفردات ، ويرى البعض أن هذا الأسلوب كان مقصوداً حتى لا يفهم المستعمر القصد التحريضي الثوري ،وربما كان ذلك صحيحا في بعض أبيات قصائده خاصة السياسية ،ولكني أذهب إلى أن الشاعر المغرد ينحاز إلى الشعر القديم وتتمكن منه اللغة الفصحى ويتمكن هو منها وشعره الوطني يمتد بجذوره في التاريخ ويستلهم أفكاره من واقع وطنه المستعمر المتطلع للتحرر.

ونلاحظ إنحيازه حتى في إسم ديوانه (أكواب بابل من ألسنة البلابل) وهي أقرب إلى أسماء الكتب العربية القديمة رغم ان الاسم عند الصاغ محمود يعّبر عن مضمون الثورة (أكواب بابل) ومضمون التغريد (ألسنة البلابل) فمن ضمن ديوانه قصيدة بعنوان (أكواب بابل) ينتقد ويهاجم فيها الشباب المتخاذل ويدعوهم للثورة كما أنه لم يختر اسما جديدا لديوانه الثاني.فقد رأى بحسه العسكري والفني ضرورة البابل والسنابل وفي ذلك نبوءة بإستمرار حالة الثورة والتغريد لفترة طويلة قادمة.

وإنحيازه يتأكد بمقارنة مفردات قصائده مع بعض مفردات قصائد جيله ،نموذجا ،الشاعر إدريس جّماع الذي نلاحظ عنده البساطة والرقة الخارقة للقلوب حتى في شعره الثوري .
ونشير هنا إلى صداقات الصاغ محمود خارج قوة دفاع السودان : عقيل أحمد عقيل ،إبراهيم عمر الأمين ، محمد وصفي عثمان ، معاوية محمد نور، عرفات محمد عبد الله الذي رثاه الشاعر بقصيدة بعنوان (عرفات) لكن من أهم صداقاته كانت مع الشيخ الطيب السراج برغم فارق العمر بينهما لأن الفروسية واللغة الموغلة في الفصاحة كانا لهما الأثر الاكبر في صداقتهما لدرجة إيراد الغريب_ والفصيح من اللغة .

يقول الشاعر المغرد:

عز يربأ في ساج به الساج أجذ ب
مالي أرجوه ومالي أرجب
أناوي في أنائه كل هجعة
ويسجو فيشجوني ويرغى فيذهب

علاقته بالخيل كما الشيخ السراج عجيبة وغريبة وربما تعود إلى حب والده وجده لهما ،وشاعرنا أحد مؤسسي سلاح الفرسان بشندي ،وإرتبط بأربعة من الخيول وتعامل معها كلأصدقاء من البشر والرفاق من العسكر في الشدة الشدة وقال فيها شعرا جميلا،واسمى خيوله :البراق – زعفران – ميمونة – الزمهرير وهو أحبهم إليه.

له غرة كالبدر بين عيونه كأنهم نجم وبدر وفرقد

- عمل في عدد من وحدات قوة دفاع السودان الشرقية (القضارف) الوسطى (الأبيّض) الشمالية (شندي) الإستوائية (جوبا). المهندسين .وأحيل منها إلى التقاعد ، وشارك في القتال مع القوات السودانية في الحرب العالمية الثانية في صحراء شمال أفريقيا ثم مالطا وصقلية وإرتريا وأثيوبيا .
- أنشد أهم قصائده وأعمقها خاصة السياسية خلال فترته العسكرية و أثرت فيه مهنته إبداعا وعتقت موهبته وعبقريته الفنية . روى لي القائد عبد الله الطاهر بكر أنه حين استلم وحدته بالقضارف وجد الدفاتر مخطوطة بيد النقيب وقتها محمود أبوبكر ،فإندهش لجمال الخط ، وبعد فترة خلال التحضير لهذا البحث (عسكريون فنانون) إلتقيت بإبن الشاعر ضابط

السجون المتقاعد حسن محمود ابوبكر (12 أبريل 2008) بمنزله بأمدرمان ورأيت النسخة الأصلية بخط الصاغ محمود أبوبكر والرسومات المصاحبة للقصائد والفهرس بالحروف الأبجدية ،وأعترف بأنني لم أرى في حياتي مثل هذا الجمال ، وبينما أقلب في الصفحات قلت:لا ينافس هذا الشعر الرائع إلا جمال الخط المكتوب به ، فرد إبنه حسن: أن صوته الشجي ومهارة عزفه على آلتي العود والكمان ينافسان شعره وخطه الجميل.

- ونلاحظ أثر المهنة على بعض قصائده الإجتماعية فقد رأى المراة المقاتلة في الحرب ، نموذجا قصيدته (عروس الفردوس) وهي رؤيا منامية رأى فيها فتاة تخرج من غدير تتحدث عن الحجاب :

أيقاتلون لكم وأنت خّضع * ومن النساء عزيزة لا تخضع
ومن النساء إذا السيوف تعانقت * عربية تطأ الرؤوس وتقطع
هيهات ما ستر الحجاب بنافع * إن كان ستر عفافها لم ينفع

- كما يبدو الأثر أيضا في علاقة قصائده بالمهنة من خلال رسمه لخريطة مجسمة للسودان (كما يفعل العسكريون) فيها خطوط السكة حديد ويضع قطع القطارات متحركة محددا فيها أماكن كتابة قصائده ، وفي رواية لإبنه حسن: (سألته يوما عن ميلانو فكان الرد عبارة عن رسم مجسم لإيطاليا كاملة وبها ميلانو والمواقع الأخرى خاصة التي تواجد فيها مع القوات ، صقلية ، مالطا والذي نظم فيها قصيدة (فاليتا) (لقاء مع حسن محمود 12 أبريل 2008).

الاصوات والصمت

الجزء الاول من أكواب بابل من ألسنة البلابل الذي يحتوي على مئة وأربعين قصيدة من عبقريات الصاغ محمود بيد إبنه حسن ويتوقع إعادة طباعته في مطالع العام 2009 ويبقى مصير الجزء الثاني بيد اصدقائه ، وإضافة إلى الشعر كتب روايتي (اميرة فرنسا وأميرة البحرين)وهي عن مدينة الخرطوم ،وكتاب عن تاريخ الأدب بعنوان نظرة عابرة . الروايتين

والكتاب تحتفظ بهم ابنته الدكتورة رجاء محمود الأستاذة بالجامعة الأهلية وآمل أن تتقدم دار نشر لتجعل قراءتهم ممكنة ومتاحة.

يقول البعض أن كثير من أشعار الصاغ محمود مغناة خلاف صه يا كنار ، الزاهي في خدره ، أيه يا مولاي إلا أنها منسوبة لغيره ،ورغم محاولات أصدقائه وطلبهم منه أن يصحح نسبها إليه ،كان يرد بأن الشعر زفرة حارة تخرج من الصدر ولا يكون لديه الحق بعد ذلك فيها إضافة إلى انها وجدت الإستحسان فلا جدوى من إثارة الغبار حولها (لم يعش عهد الملكية الفكرية).

المهنة العسكرية صقلت الموهبة الإبداعية للصاغ محمود وعتقتها ووصلت بها قمة النضوج الثوري والفني ويعتبر أحد أهم مروق العسكريين الفنانين، وساهم في تشكيل الهوية الثقافية نفسا وذهنا ووعيا وأفكارا ووجدانا ووحدة إرادة ، وكان لذلك دور محوري في المقاومة ضد المستعمر ثم الإستقلال لكنه دور ظل بعيدا عن الأضواء التي يملأها السياسيون والإنقلابيون لكنه يبقى دوراً مطلوبا.

الصمت ربما يعني الإستماع إلى إنسان آخر ، كان الثائر المغرد إبتكر خلطة نادرة ومهيبة بين الأصوات والصمت وحّول الصمت من هدوء سالب إلى صمت داوي

صمت فلما ضاق بالصمت ذرعهم نطقت فأخرست الغصون الشواديا
إن يكن صمتي رهيبا إن في الصمت كلاما

صه ياكنار وضع يمينك في يدي
صه ياكنار فما فؤادك في يدي
صه ياكنار فبعض صمتك موجع
صه ياكنار فبعض صمتك مسعدي

****

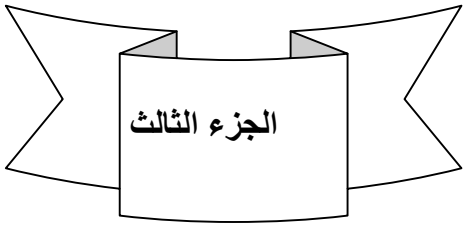

عسكريون فنانون

المثقف النبيل

العقيد: سيد احمد العمدة

النشأة والتكوين:

الجد عثمان إبراهيم العمدة القادم من حلفاية الملوك،أحد أهم أعمدة سلالة قبيلة المغاربة في السودان فقد كان عمدة الخرطوم بحري والضواحي وخليفة السيد علي الميرغني ،وفي إحدى زياراته لقرية ود السيد تزوج للمرة الثانية من آمنة بنت سراج النور التي تنتمي أيضا إلى قبيلة المغاربة وهذه الزيجة أسست فرعا مهما لآل العمدة بحلة خوجلي بالخرطوم بحري وربطت الصلات بين قبيلة المغاربة المقيمين في الحلفايا وفي الجزيرة عامة وود السيد خاصة حيث أن زوجته الأولى أم كلثوم محمد نور الدين (النوردیناب) المشهورة باسم القزاز لجمالها ولونها ورزانتها , وحكمتها هي أصلا بنت خاله وقد ولدت له والدي خالد العمدة وإخوانه وأخواته.

بت سراج النور القادمة من ود السيد هي حبوبة المثقف النبيل العقيد سيد احمد العمدة، وقد بنى لها العمدة عثمان إبراهيم مسكنا في حلة خوجلي تجنبا لجمعها مع ضرتها بالحلفايا وليكون قريبا من شيخه السيد علي الميرغني وكذلك قريبا من موقع مبني محكمته بمركز الخرطوم بحري بجوار حلة الميري (باعت الإنقاذ المنطقة كلها لمستثمر أجنبي).وقد ولدت بنت سراج النور من العمدة عثمان تسعة أولاد منهم اللواء محمد الحسن العمدة وأحمد العمدة والد العقيد سيد.

وقد عمل عمي أحمد صرافا في مركز بحري وهي مهنة كان يختار لها الموظفون بمواصفات محددة كالأمانة والدقة حتى أنها من المهن التي تميز بها الأقباط السودانيين في ذاك الزمان وتوفى عمي أحمد وهو في كامل قوته في العام 1954 وكان عمره 58 عاما، حينها كان ابنه الملازم سيد بالمدفعية في عطبرة بقيادة اللواء أحمد مجذوب ألبحاري ، وتحكي لي والدتي (حين وصل سيد مكان الفراش كان بكامل زيه العسكري ودخل على أمه وحضنها وهو يبكي ويقول لها أن الله خلقه ووالده خلفه ليرعاها ويحافظ عليها ويعدها بأنه سيكون قريبا منها أكثر مما تتصور أو تتوقع أم من إبنها)وقد فعل، ويتداول الأهل أنه ما من ام توفيت وهي راضية عن ابنها كما نفيسة الشنابلية والدة المثقف النبيل العقيد سيد احمد العمدة.

نفيسة محمد نور ألبحاري من شنابلة المسلمية والدها كان كان يعمل في صياغة الذهب في سوق الخرطوم بحري تعرف عليه احمد العمدة وتزوج ابنته نفيسة وفي ذلك يقول العقيد سيد أن العوائل الكبيرة كانت تكرم بعضها بالنسب فكما كرم جده العمدة عثمان من أهل ود السيد وجده صالح نور الدين من أهل سوبا شرق كرم أبوه احمد العمدة من أهل المسلمية.، لذلك كان سيد يهتم بتقوية الصلات بين أبناء الأعمام وابتكر (عشاء أول خميس في الشهر)وهو اليوم الذى يدعو فيه إخوانه وأبناء أعمامه جميعهم للعشاء بمنزله ، وقد عمق عشاء أول خميس من الروابط بين الأهل والعشيرة حتى أنني اذكر ان أشقائي عثمان وكمال كانا من ضمن الذين يحضرون ذاك العشاء الأسبوعي الفاخر بمعانيه وقيمه النبيلة وقد رسخت هذه الفكرة في ذهني وتأثرت بها وحاولت تطبيقها بعد أكثر من عشرين عاما،وفي ذات معنى الارتباط بالجدود ورضا الوالدين يقول

شاعرنا العقيد سيد احمد في قصيدته الجميلة المليئة بالمضامين (مولد أحمد) مرحبا بحفيده أحمد من ابنته المحامية إيمان .

ما ضل عن تاريخهم من باحث * إذ دونه (الطبقات*) سفر يشهد
فلئن جد غوث يستسقي به * ومآثر العمد الجدود تنضد
شان الفتى يحذو أباه فيقتفي * دربا تعهده الجدود ووطدوا
ها نحن عود للقصيد نردد * والعود أحمد - هلا بك أحمد
يا كرمة جادت فأتت أكلها * طوبى لأم طاب منها المولد
أوصيك نور العين بالدين بادئا * بالعفو – عفو الوالدين تعبد

*(طبقات: ود ضيف الله)

ارتباطه بالمكان ومدينة الابتسام:

ولد المثقف النبيل العقيد سيد احمد العمدة بالخرطوم بحري مدينة الابتسام وهي المدينة التي ارتبط وتأثر بها وارتبطت به وأثرت فيه ، ففي 19 أكتوبر 1930 أنتجت نفيسة محمد نور الشنابلية ولدا سيصبح كوالده وجده احد أهم أعمدة المدينة ويعتبر اليوم من المراجع القليلة في تاريخ الخرطوم بحري القديمة ويجهل الكثيرون أنه احد العسكريين الفنانين وقد احتفظ بالقليل من شعره وصاغ اغلبه كعادة معظم السودانيين .. وقد لا يرجع السبب لمجرد التقاعس بل ربما إلى صعوبة الإعلان عن شاعرية الإنسان لنفسه ووعورة تلك الدروب .. وربما التواضع عن الإفصاح لدرجة يطويه النسيان بمرور الزمن .
لكنا نغوص في بعض إشعاره كواحد من نماذج هذا البحث احتفاء بمرور ثمانية وسبعين عاما على مولده (أطال الله عمره). العقيد سيد بدأ حياته كمعظم أطفال جيله ، درس الخلوة بخلوة الشيخ خوجلي بالخرطوم بحري ، والمدرسة الأولية بمدرسة حلة حمد ، والمرحلة الوسطى بمدرسة حلة الدناقلة وحين ابتعد في دراسته خارج مدينته كانت المرحلة الرابعة مدرسة وادي سيدنا الثانوية .

تزوج من نساء الخرطوم بحري حياة محمود بكري ووالدها المقاول ورجل الأعمال والخير المعروف، وأنجب منها أول أولاده أسماه أحمد تيمنا بوالده والمهندس أسامة الذي عمل لفترة سنتين بسلاح الطيران السوداني وإيمان المحامية وأميمة التي درست الإدارة العامة .. وظل مقيما في مدينة الخرطوم بحري إلى الآن لم يغادرها إلا حين كان ينتقل في العمل خارج العاصمة الخرطوم. وربما زاد الارتباط بها المسؤولية المبكرة التي انتقلت إليه بعد وفاة والده العام 1954م ليتولى الإشراف ورعاية إخواته وإخوانه ، والفقيد سيد تجري في دمائه الصفات والمواصفات الخاصة بمدينة بحري القديمة والتي تتصف بالهدوء والرزانة وسكون الليل

والابتسامة ، وحين تقترب منه تشتم فيه رائحة بحري وفي شعره أيضا ، ففي قصيدته الرقيقة (لقاء والتقاء) يقول:

كان ذلك في زمان .... في مكان
عبر ظرف ليس في بالي وبالك
شاءت الأقدار أنا هكذا عفوا
تهيأ ملتقان ..... فالتقينا

الدخول إلى العسكرية:

درس في الكلية الحربية في الفترة (1951 – 1952م) وتخرج منها عام 1953 ضمن عشرة طلاب يشكلون الدفعة الرابعة في قوة دفاع السودان وعمل بالمدفعية – عطبرة – وحامية الخرطوم التي أنشأها اللواء حسن بشير نصر ، والاستوائية جوبا مسئولا عن الإمداد والذي استلمه من الضابط جعفر نميري ، ثم سلاح الطيران مسئولا عن الإدارة (1963 م– وسلاح الأسلحة 1965م) واستلم قيادته وهو برتبة المقدم من العقيد وقتها علي حسين شرفي ، وترقى أثناء قيادته لمصنع الذخيرة إلى رتبة عقيد ومنها أحيل إلى التقاعد في أكتوبر 1969م أي بعد خمسة شهور من الانقلاب الذي قاده صديقه الجنرال جعفر النميري في مايو 1969 .
ومن طرائف الانقلابات والرفاق أن المثقف النبيل العقيد سيد العمدة لم يسأل صديقه الجنرال نميري عن أسباب فصله التعسفي إلا بعد مرور زمن طويل جرت فيه مياه كثيرة ، فبعد أكثر من ثلاثين عاما من سقوط نظام الجنرال نميرى 1985م وعودة نميري من لجوئه بالقاهرة في الألفية الجديدة زار جنرال نميري صديقه القديم العقيد سيد العمدة في منزله بمدينة بحري حلة الأملاك وفجأة سأل العقيد النبيل الجنرال النميري: إنت يا جعفر زمان رفتني من الجيش ليه؟ ؟ فرد الجنرال ، قالوا انتو كنتوا بتقطعوا فينا.

من أعز أصدقائه ، الملازم عبد القادر محمد عباس أول دفعتهم الذي استشهد في العام 1955م وقبره بتوريت ، ويروي العقيد سيد العمدة أن الملازم عبد القادر لم يكن أولهم بالصدفة وإنما كان فعلا أميزهم وأتى الكلية الحربية بعد حصوله على نتائج عالية في امتحانات كمبردج ، وحين ذهب سيد في مهمة توريت قرأ المصحف كاملا أمام قبر صديقه عبد القادر وابن عمه سر الختم حامد العمدة الذي كان يعمل موظفا في توريت ، والعلاقة بين سيد وعبد القادر امتدت إلى الأسر حتى أن والد عبد القادر كان حين يلتقي سيد يحضنه بصورة تجعل العناق بكاءً، إضافة الى الملازم عبد القادر كانت صداقته مع الضباط علا الدين محمد عثمان ، أنس عمر ومحيى الدين موسى.

دخل سيد العمدة الكلية الحربية عن رغبة فيها ولكني اعتقد أن وجود عمه اللواء محمد الحسن العمدة والذي أحيل إلى التقاعد في أوائل الخمسينات إضافة الى زوج ابن عمه محمد احمد عروة

في قوة دفاع السودان أثرا في دفع سيد إلى الكلية خاصة إذا وضعنا في الاعتبار سكنهم جميعا بحلة خوجلي ويمكن أيضا التشجيع الغير مباشر للطريقة الختمية التي تنتمي إليه أسرته فارتباط عمه اللواء محمد الحسن العمدة بالسيد علي الميرغني كان قويا بل كان قريبا منه ، وقد ذكر المرحوم الخليفة محمد طه الريفي صحفي مولانا السيد علي في مذكراته التي دونها الأستاذ إبراهيم عبد القيوم انه في الصباح الباكر من يوم 17 نوفمبر 1958م طرق بابه اللواء المتقاعد محمد الحسن العمدة ونقل له رغبة مولانا السيد علي في رؤيته حالا وأخذه بعربته إلى مولانا حيث طلب منه كتابة مسودة بيان الحزب وموقفه من الانقلاب .

جينات العسكرية الأسرية متوفرة في كل بلاد الدنيا ونلاحظها عند أسرة العقيد سيد حتى أن أخاه الأصغر علي احمد العمدة انضم إلي الكلية الحربية ضمن الدفعة الثالثة عشر لكنه تركها سريعا ودرس الهندسة بالمعهد الفني الخرطوم وتوفي شابا في حادث حركة بليبيا.

تميز العقيد سيد العمدة بقدراته في فن الإدارة وعلم الإمداد والقانون العسكري ويعتبر احد أهم مؤسسي وقادة مصنع الذخيرة وفي عهده تم تطوير المصنع وشهد توسعا نوعيا بإرسال الكوادر الفنية للتدريب بألمانيا الغربية وقتهاوقد أدرك ببعد نظره أن أهم المكونات الفنية ، الكادر البشري فأشرف على إختيار الأفراد لدرجة أنه أرسل إلى بعض الأسر يشجعهم على إرسال ابنائهم للتجنيد كفنيين بمصنع الذخيرة.

العقيد سيد العمدة كان محترفا تماما وابتعد عن السياسة بل لم تكن حتى من اهتماماته فقد شهدت قوة دفاع السودان (الجيش السوداني فيما بعد) بدايات تكوين خلايا تنظيمات الضباط الأحرار وجيلهم في قمة شبابه ونضوجه وحماسه ، وأثر الثورة الناصرية بمصر عام 1952 كان واضحا على صغار الضباط السودانيين في ذلك الوقت.
فاليوزباشي عبد البديع علي كرار الذي اعدم بعد فشل المحاولة الانقلابية عام 1959 ضد الجنرال عبود كان صديقاً لليوزباشي (وقتها) سيد العمدة ودفعته ويقول عنه :كنا نعمل سويا بحامية الخرطوم ، أنا كنت اركان حرب ، اللواء حسن بشير نصر ، واليوزباشي عبد البديع قائدا للبلك ، ولم يفاتحني إطلاقا عن التنظيم أو الحركة التي ينتمي إليها لكن كان يقول لي " إنت عارف يا سيد النظام ده بمشي " ، عبد البديع كان راجل ضكران وأثناء المحاكمة كان قوي ، وفي قصيدته الدارجة (الشيخوخة) التي تدخل ضمن الشعر الظريف يحذر المثقف النبيل من السياسة حتى وهو في هذه المرحلة من العمر:

إذا ألمت بالفتى الشيخوخة فليستعد لركبة مملوخة
وقصور ذاكرة تجلت حدة كانت مزية نابه وشموخه
ودع السياسة ومن يسوس فليس تلك إلا فرية ماهر مطبوخة

المثقف النبيل العقيد سيد العمدة:

أحب الأدب عموما منذ صغره لكن ميوله كانت واضحة للشعر وارتباطه بالكتاب ارتباط عميق فقد دأب على قراءة الكتب عبر السنين في صمت بل في خلوة أحيانا كثيرة، واختياره لكتبه لا تنصب على نوعية واحدة مما يعني توسع دائرة اهتمامه فقد لاحظت من خلال مكتبته انفتاحه على كل أنواع الكتب أى على كل أفرع الأدب ، وكمعظم شباب جيله حاول الكتابة مبكرا وليست بحوزتنا مراجع نستند عليها لمراحل دراسته الأولي بين خلوة الشيخ خوجلي والمدرسة الوسطى بحلة الدناقلة ولكن المرحلة الثانوية بوادي سيدنا والتي ظهرت فيها قدرات الطالب سيد العمدة ونشير إلى أنه كان يتناقش كثيرا مع الطالب بازرعة الذي أصبح فيما بعد شاعرا عظيما .
ويقول سيد العمدة أن النقاش كان يتركز على محاولاتهما الشعرية رغم ان بازرعه يصغره في المدرسة بعامين ويذكر اليوم الذي قدمه بازرعة للفنان عثمان حسين الذي ظل يلح على سيد (لازم تديني قصيدة) ، لم يتوفق في إعطائه قصيدة ولكن عثمان حسين أصبح أحب الفنانين إليه.

من قصائده الأولى التي نظمها بمدرسة وادي سيدنا الثانوية وهو في نهاية المرحلة :

الوادي يبكي مغربا ونهارا
والعين تنظر يمنة ويسارا
والعقل يسبح حالما في حيرة
كل القلوب تدق يوم وداعكم
دقات قلب في العيون حسيرة

****

عند استقلال السودان في يناير 1956م كان الملازم وقتها سيد العمدة بالمدفعية عطبرة فأعلن القادة الانجليز والموظفين الكبار دلالة لبيع ممتلكاتهم ومن بينها الكتب فاشتراها الضباط السودانيون والكتب التي اشتراها سيد ما زالت موجودة حتى الآن في مكتبته ، ولفت نظري أن العقيد يسجل بخطه الجميل تاريخ بداية قراءته للكتاب ونهاية إكماله له بشكل مرتب وقد قرأها جميعها.

أثر المهنة العسكرية على العقيد سيد العمدة لا تخطئه العين سواء الأثر الوراثي من أسرته أو المكتسبة بعد دخوله الكلية الحربية وأشهر شعره وأجمله قاله إثناء فترته العسكرية خاصة العاطفي منه ولا يوجد عنده شعر سياسي ويشغل هذه المساحة السياسية ارتباطه بالوطن ويبدو

ذلك من خلال بعض أبيات قصائده وفنانيه المعجب بهم ، ففي وصيته لحفيده أبن بنته إيمان المحامية يقول :

أوصيك بالأرحام في كل حاله * ما ازددت أو أقللت في حال ترفد
والعلم في دنياك ما عشت فأطلبه * وأجعله زاد الناس فيه تزود
أما الوطن فأرخص وأبذل له المهج * والمال والأرواح والجاه والولد

وفي قصيدته ابن التاميز : التي انشدها عام 1965 وهو بمدينة لندن العاصمة البريطانية

يا ابنة التاميز يا كل المرام * إنني إبن الشمس من دار الكرام
من بلاد حرة لا ضيم فيها * كعبة الأحرار ينبوع السلام

وكما ذكرنا فانه أحب الفنان عثمان حسين إضافة الى الفنان حسن خليفة العطبراوي الذي ارتبط به وبأغانيه الوطنية منذ أن كان سيد ملازما بالمدفعية عطبرة وثالث الفنانين الأستاذ عبد الكريم الكابلي ، وبالتالي نلحظ الارتباط بالوطن والفن والمكان عند سيد.

تميز العقيد سيد العمدة بالنبل كإنسان فاضل وشريف مترفعا عن الصغائرتسامحا وسماحة وصبرا مقدسا على بلاوي الحياة ، ويعتبر سيد حديقة نبل وارفة، واشتهر بضخامة الجسم ورقة الحديث وخفة الدم ، ولعلاج السمنة سافر إلى مدينة لندن في العام 1965 ولزم (همر سميث هوسبيتال) وفيها قال أحد أجمل قصائده إبنة التاميز التي اشرنا إليها:

مس نيوتن ليس للحب وطن
لا ولا للحب دار أو زمن
فهو عربيد طليق سارب في
أماني البيض أو سود السحن
فالحب إذ يغزو القلوب مباغتا
يمضي جزافا أيما قلب سكن

وبقدر ما تسببت السمنة في ذهابه لندن للعلاج وإنشاده شعرا عاطفيا رقيقا بقدر ما أجلسته بعد إحالته للتقاعد فترات طويلة بمنزله وحّدت من حركته ومرونته ، وألتزم بحلة الأملاك بمدينة

الابتسام لكنها أيضا ساهمت في إتاحة الوقت للإكثار من القراءة والتعمق فيها وتثقيف نفسه والعجيب هنا أن الإكثار من القراءة عادة يرتبط ارتباطا كبيرا بالتفاعل الاجتماعي ولا يجدي القول هنا أن العزلة الاجتماعية أو محدوديتها خليقة بان تؤدي الى الانصراف عن الكتب بل يمكن القول أن المجتمع حرم من تأثير مثقف نبيل وعسكري فنان .أنظر إليه في هذه الأبيات من قصيدة عيناك قالت :

عيناك قالت والعيون تقول
وتفض سرا في القلوب يجول
فعلام تأرق والليالي تطول
كلا وحبك الصعاب تزول

****

وبمثل ما منعت الظروف المجتمع من التأثير والتأثر بإنتاج المثقف النبيل ، حرم الفصل التعسفي المجتمع العسكري من قدرات العقيد الأديب سيد العمدة وقطع وعطل تواصل الأجيال،،،،،، ليس عسكريا فحسب بل يعنينا هنا الثقافي والفني والإبداعي أي دور الجيش على الهوية الثقافية والسودانية ، لعن الله انقلاب الرفاق على الرفاق.

أيام حكم الجنرال عبود (1958 – 1964) كان الجيش مهابا تحف الهيبة أفراده ويضيف إليهم لبسهم الجميل الأنيق، وأيام كانت الطبقة الوسطى تشترى الصحف والمجلات والكتب من كشك المحطة الوسطى بالخرطوم إثناء عودتها الى المنزل بعد نهاية العمل ، كان الضابط سيد العمدة بجسمه الضخم يستخدم عربة صغيرة ماركة فيات بابها يفتح إلى الأمام (عكس الحالية) وفي يوم أوقف العربة واتجه إلى الكشك فسمع مواطن يقول لصاحبه (الكتلل ده بيدخل العربية دي كيف؟)، اشترى صحفه ومجلاته وإثناء عودته للعربة قبض يد المواطن بقوة جعلته يرتجف وقال له أقيف هنا ، ثم فتح باب العربية وجلس في مقعد السائق قفل الباب وأدار المكنة .... هنا التفت إلى المواطن المرتبك وقال ، بدخل كدة ..

أثناء فترة عمله بالإدارة في سلاح الطيران نظمت حفلة عشاء على أنغام الموسيقي والطيارون والمهندسون الانجليز يرقصون مع نسائهم والضابط سيد يرقص مع احد رفاقه الضباط السودانيين، في هذا الأثناء نظرت زوجة احد الطيارين الانجليز باندهاش إلى سيد وسألت زوجها (Is he a pilot) ...هل هو طيار؟ فسمعها سيد وأجاب بدلا عن زوجها، لا رقاص

تميز المثقف النبيل العقيد سيد العمدة بالوفاء لأسرته وأهله وأصدقائه ووطنه ونلحظ ذلك في شعره وكتب رثاء للشاعر نزار قباني وبكائية بعد وفاة الطبيب الشاب حسام مجذوب البنا يقول فيها :

كالوردة البيضاء طلت بين تيجان الزهر
كالحلم كالآمال أروت عمق وجدان البشر

إلى أن يقول:
لما تعمق حزننا في القلب للفقد الجليل
عدنا نهدهد روعنا ونؤوب للصبر الجميل

****

أحب أسرته الصغيرة والكبيرة وفقد أحبهم إليه فاطمة التي توفيت في ريعان شبابها وشقيقه حسن أصغر الإخوة فقد توفى ستة من إخوانه /أخواته وتبقى خمسة أطال الله عمرهم ، اذكر إنني قضيت فترة بمنزل عمي احمد بحلة خوجلي إثناء دراستي بالمدرسة الأهلية الوسطي ببحري وحين عودتي الأخيرة إلى السودان ديسمبر 2005 سالت عن علوية أحب بنات عمي احمد إلى نفسي ، فعلمت أنها من ضمن الستة المتوفين ... ومنذ ذلك الوقت توقفت السؤال عن الأحباء إلى أن يأتيني الخبر اليقين بزيارة أو لقاء.

ويبدو ان العسكريين الفنانين يتبادلون الرسائل بالإيحاء فبمثل إعجابه بالرائع الطاهر إبراهيم أحد أهم مروق العسكريين الفنانين لاحظت استخداما مشتركا لبعض المفردات بين المثقف النبيل والثائر المغرد الصاغ محمود أبو بكر النموذج الأول الذي كتبنا عنه في هذا البحث (عسكريون فنانون)

يقول الثائر المغرد يصف حصانه الزمهرير:
له غرة كالبدر بين عيونه كأنهم نجم وبدر وفرقد
ويقول المثقف النبيل يوصي حفيده احمد باختيه(عناب) و(عروب) :

عناب في يمناك أبراق كوكب و(عروب) في يسراك بدر وفرقد

ويهمنا من جملة العلاقة بين أجيال العسكريين الفنانين حجم تأثيرهم على الهوية الثقافية والهوية السودانية في شقها الايجابي بمعنى انطباق أخلاقيات مهنة العسكر مع الدور الإبداعي (الأدبي والفني) وغني عن القول أن أخلاقيات المهنة تتصالح مع ذاتها وواقعها ومجتمعها وفي حالتنا المجتمعين المدني والعسكري .

واختم النموذج الثاني من سلسلة نماذج موضوع البحث (عسكريون فنانون) ببيت شعر واحد للمثقف النبيل من قصيدته الرائعة لحفيده احمد لو لم يقل غيره لكفى تصنيفه احد المروق التي يستند عليها الثلاثي الإيقاعي،(الشعر – الغناء – مشية العسكر)

فاغرورقت في العين دمعة والد * طلق المحيا في دمعه يسعد

****